المفارقة وصورة الذات فى شعر بدوي الجبل

إعـــداد
أ/ مروة نصر على أحمد

التمهيد :

كان الشاعر المعاصر أكثر وعيًا في توظيف المفارقة بوصفها أداة لغوية وتكنيكًا فنيًا لا غنىً عنه، نظرًا لما يكتنف الواقع من مفارقات جمَّة يصعب عليه أن يغضَّ الطرف عنها أو يتجاهلها وخاصةً أنها أصبحت تمثل ملمحًا أسلوبيًا بارزًا في الشعر الحديث و " ضرورة من ضرورات البناء. وليس ترفًا أو تضليلًا للقارئ، ذلك أن طبيعة الحياة التي نعيش تقتضي مثل هذه الأنماط التعبيرية "[1] وشاعرنا البدوي كغيره من شعراء عصره أصبح معنيًا برصد تناقضات العالم التي يُشكل منها مفارقاته، فوجدناه يصوب عدسته نحو بعض أحداث الحياة وصورها المتناقضة ووقائعها المتضاربة، فيقتنص بعضًا من مشاهدها فيسقط عليها من حسه الفني وتجاربه فتخرج مُصطبغة بروح العصر وبنوعية التجارب التي يمر بها.

فالشاعر عادة يرى في الأشياء من حوله ما لا يراه الآخرون ومن ثم فهو أكثر وعيًا برصد ما يحيط به من تناقضات برؤيته الثاقبة وحسه الفني المُرهف وتجاربه الواسعة التي يتكيء عليها في إقامة الوشائج والصلات بينها لتخرج في النهاية بنية متناغمة ومتكاملة. فقد يُحاط المرء بتناقضات لا حصر لها لكنه لا يلتفت إليها أو يتعمق مدلولها فيأخذها على عجل فلا يلمح فيها شيئًا من التناقض بينما نجد الشاعر يلتفت إلى دقائق الأشياء وصغائرها فيلتقط من الكلام ما لا

---

[1](المفارقة في الشعر العربي الحديث) ناصر يوسف إبراهيم جابر – رسالة دكتوراه – الجامعة الأردنية – كلية الدراسات العليا ؛ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م ؛ ص ٧٥ .

يتطابق مع مقتضى الحال ومن الصور ما يختلف ومن الأحداث ما لا يأتلف ويخالف التوقع والمقصود.

والمفارقة تلعب دورًا بارزًا على الصعيد الداخلي والخارجي لبنية القصيدة، بحيث تُسهم في تشكيل البنى وإجلاء ما تشتمله من تناقضات يلتقطها الشاعر ببصيرته النافذة فيكدَّ ذهنه ويُعمل حدسه ليقيم ويدرس العلائق بينها فيقيل المعاني من عثرتها ويرد الأمور إلى نصابها ويكشف اللثام عن حقيقة معناها.

ويُعد نتاج بدوى الجبل الشعرى أرضًا خصبة لنمو مفارقات عدة منها ما هو مقصود ومُتعمد يصطنعه الشاعر وبعضها يأتي بصورة عفوية وتلقائية، فمن المُبالغ فيه أن نعتبر كل ما ورد في شعره من مفارقات مُفتعل وتم عن قصد، فقد عهدناه في مواضع كثيرة يموّه ويراوغ ويوحي بعكس ما يريد لاختلاق مفارقة لأسباب عدة قد تكون بدافع سياسي أو نفسي أو اجتماعي، وفي أحيان أخرى نجد أيديًا خفية تُسهم في خلقها كالزمن الذي يقلب الأوضاع أو القدر أو الطبيعة،... فتكون هذه العناصر هي المفتعل والخالق الحقيقي للمفارقات والموجه لها وليس الشاعر الذي يقع ضحية لها مثل غيره .

ومن هذا المنطلق تتوجه الباحثة في الكشف عن بعض آليات المفارقة المُقصودة التي يختلقها الشاعر مثل (المفارقة السقراطية – مفارقة الكشف عن الذات – مفارقة الاستخفاف بالذات – المفارقة الرومانسية) .

المبحث الأول: المفارقة السقراطية (تجاهل العارف)

يُطلق عليها البعض (تجاهل العارف) وهي تقوم على إنزال المتكلم العالم منزلة الجاهل بالخبر رغم علمه وإحاطته به، حيث يتعمد صانع المفارقة أن يُفرغ نفسه من حالتة الإدراكية والمعرفية ويظهر وكأنه لا يعلم شيئًا، وهو يعمَد بهذا الفعل إلى مباغتة المتلقي ليُخرج كل ما في جُعبته ، والمفارقة السقراطية تقترب بهذا المعنى مع ما يُعرف في تراثنا العربي بمصطلح " تجاهل العارف "، وقد أورده أبو هلال العسكرى في باب سماه " تجاهل العارف ومزج الشك باليقين " فعرفه بأنه " هو إخراج ما يُعرف صحته مخرج ما يُشَكُّ فيه ليزيد بذلك تأكيدًا"[١]، فقد كان يظهر سقراط في محاوراته مع الخصم بمظهر الجاهل بمجريات الأمور حتى يوقع مُحاوره في شراك لُعبته فتنطلي عليه اللعبة فيقع ضحية جهله، حيث كان يتبع سقراط " طريقة معينة في المحاورة لاستدراج شخص ما حتى يصل إلى الاعتراف بجهله"[٢] تلك الطريقة تُحدث لدى محاوره ارتباكًا في الفهم يؤدي به إلى خلخة في الثوابت والمسلَمات فيولد لديه حالة من الشك، فيخرج وقد فقد الثقة كاملة فيما كان يؤمن به، ولا يتركه سقراط إلا بعد أن يصل إلى مرحلة يعترف فيها بجهله وهنا يشعر بلذة الانتصار ببلوغ المرمى؛ هذا التجاهل سيقود في النهاية إلى وقوع ضحية تنطلي عليه الخُدعة إذا لم يكن على قدر كافٍ من الوعي.

وبهذا تقوم المفارقة السقراطية على تفريغ صانع المفارقة من حالاته الإدراكية الظاهرة، وشحنه بحالات طارئة لأهداف واعتبارات خطابية، فينزل نفسه محل " خالى الذهن " الجاهل غير العالم أو على قدر ضئيل من المعرفة وقلة الوعى والدراية وهو بهذا يُخالف حالته الحقيقية التي يكون عليها.

---

[١] إبو هلال العسكري: الصناعتين؛ تحقيق / على البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب؛ ط ١، ١٩٥٢، ص ٣٩٦.

[٢] يُنظر نبيلة إبراهيم: المفارقة، مجلة فصول – مصر؛ مجلد ٧، العدد ٣،٤ – ١٩٨٧م؛ ص ١٣١،١٣٢.

وشعر البدوي يحوي العديد من الأمثلة التي تدخل في دائرة السقراطية المتجاهلة والتي تؤول في النهاية إلى وقوع ضحية تنطلي عليه لعبة المفارقة .

وذلك ما نجده في قصيده (حيرة النفس) والتي يبحث فيها الشاعر عن حقيقة النور الإلهي الذي ينعكس على الموجودات ونرى جماله في الطبيعة وجميع الأشياء من حولنا وكل ما يُحيط بالإنسان (والنور) رمز له دلالة عند المتصوفة ، هذا النور الإلهي كما ينعكس على الموجودات نرى بريقه منعكسًا كذلك على النفس والروح فتستنير النفس البشرية وتهتدى بفضل هذا النور بحيث نرى هذا الجمال الإلهي في الموجودات من حولنا، فنُدرك حقيقة الوجود " إذ يغدو النور انعكاسًا للجمال الإلهي الذي يشع بريقه على جميع الأشياء الساطعة الجميلة، بما في ذلك النفس والروح"[١]، هذا الجمال هو سبيل للهداية وليس الضلال لكن الشاعر يتقمص دور الجاهل المتشكك الذي لا يعرف هل هذا الجمال ضلال للنفس أم سبب لهُداها رغم أنه يعرف الحقيقة إلاَّ أنه يتجاهلها ويظهر بمظهر غير العارف في قوله:

عَبَـــدْتُكَ فـــي الجَمَـــالِ ولا أَبـــالي ضَـــلالُ الـــنَفسِ ذَلِـــكَ أمْ هُـــداها

فَفـــي نَفْسِـــي جَحِيمُـــكَ مَـــنْ سَيصْـــلى بِهـــا لِشـــقَائِهِ ومَـــنْ اصْـــطلاَهَا

وفـــي نَفْسِـــي السَـــماءَ وفَرْقَـــدَاهَا ومَـــنْ سَـــمَكَ الســـماءَ ومَـــنْ بناهَـــا

وهَـــلْ مِـــنْ أَنَّـــةٍ خَفِيَـــتْ ودَقَّـــتْ أَسَـــىً إلاَّ وفِـــى نَفسِـــى صَـــدَاهَا[٢]

وبهذا النور الذى يملأه يستنير أمامه الطريق وتتضح له الحقائق وتتكشف أمامه الموجودات فيُدرك حقيقة نفسه والعالم من حوله.

---

[١] عصام شرتح: (دهشة الإثارة والفن فى شعر بدوى الجبل. دراسة فى جمالية الشعر) دار آمنة للنشر والتوزيع؛ عمان – الأردن – ٢٠١٩م، ص ١٢١.

[٢] بدوي الجبل (الديوان)، دار العودة – بيروت ؛ لبنان ١٩٧٨ م ؛ ص٣٤٠.

وقد يُصَّعد من حدة المفارقة السقراطية أن يظهر صانعها بمظهر الجاهل والعارف في ذات الوقت وذلك حين يطرح الأسئلة طالبًا الإجابة لكنه يتكفل بالرد على ما سبق وأن تنكر له حتى يكشف عن وجه ضحيته المُحاط بهالة من الزهو والغرور فيقلل من شأنه ويستخف به، فيؤكد أنه يعرف عنه أكثر مما يعرفه الآخرون فيقول مُخاطبًا " كافور " عصره متجاهًلا له وعارفًا به في ذات الوقت في قوله:

مَنْ أَنْتَ ؟ عَاصِفةٌ وتَذْهَبْ مِثْلَمَا انْقَشَعَ الدُخانُ

مَنْ أَنْتَ ؟ لاَ المَجْدُ الأصيلُ وَلاَ شَمائلُهُ اللَّدانُ

لاَ العَبْقَرِيَّةُ فيكَ مُشرِقَةٌ وَلاَ الخُلُقُ الحُسَانُ

لا الفكرُ مُؤْتَنِفُ العُطُورِ ولا البَيَانُ وَلا الجِنانُ

لاَ السِّرُّ عنْدَكَ أَرْيحيُّ المَكْرُماتِ وَلاَ العِلانُ

مَنْ أَنْتَ ؟.. إِنْ ذُكِرَ العِظَامُ وَرَنَّحَ الدُنيَا افْتِنانُ

مَنْ أَنْتَ ؟.. لَولاَ صَوْلَةُ الطُغْيَانِ، أَنْتَ إِذنْ فُلانُ [١]

"غير أن الذى يُجيب عن السؤال هو أيضًا صانع المفارقة ذاته، لكنه هذه المرة يخرج من ثوب التجاهل والاستخفاف ويظهر متسلحًا بالمعرفة"[٢] وبهذا التجاهل والاستخفاف المقصود يجعل من الحاكم ضحية لكبريائه وغروره، فينهال عليه توبيخًا وتقريعًا بسؤال متجاهل، فأشد ما قد يجلد الإنسان أن يُعامل كنكرة وهو المعروف وكمجهول وهو الذى ذاع صيته واتسعت شهرته، لاشك هذا التنكير يقلل من شأنه ويحط من قدره ويهزم غروره.

---

[١] الديوان ص ١٥٠.

[٢] المفارقة فى الشعر العربى الحديث: ص ١٧٠

المبحث الثاني: مفارقة الكشف عن الذات

إن ما عليه التعويل في هذا النوع من المفارقة هو الكشف عن وجه الضحية التي تجلب على نفسها مفارقات دون وعي منها، إذ يقوم الشاعر بعرض شخصية تقوم بأفعال وأقوال بدون قصد أو تعمد فتوقعها تصرفاتها ضحية بجهل منها، فيُنبيء فعلها عن ذات غير مسؤولة وأقل وعيًا وغير مُدركة لما يدور حولها، إذ " ينسحب صاحب المفارقة تمامًا ويخلق شخصيات تجلب على نفسها مفارقات دون وعي منها"[١].

فقد يلجأ الشاعر فى بعض الأحيان إلى التعريض كسياسة في التعامل مع الخصم بحنكة ودراية ليُبَصرَّهُ بخطئه دون أن يُعرِّض نفسه للمُساءلة، فيلوح للمعنى من بعيد دون أن يقصده مباشرة ، كي لا تُصيبه يد البطش أو يقع تحت طائلة القانون، فنراه يأخذ دور المُحلل الناقد لأوضاع فاسدة، وتصرفات حمقاء.

وهذا ما رام البدوى توظيفه من خلال مفارقة تظهر وقوع حكام العرب وقادتها ضحية أفعالهم التي تنم عن ذات غير واعية وغير متأنية في اتخاذ القرارات، جاهلة بمجريات الأحداث، تلك المفارقات التي تجلبها الضحية على نفسها ناتجة عن قلة وعي وقصور في الرؤية وهشاشة في الرأي، فتكشفت عن نفسها دونما قصد منها لدى المتلقي كونها " غير واعية لما يجري في الحقيقة، أي يغلب عليها العمى في كبر وثقة فى حمق "[٢]؛ وذلك ما قصده الشاعر في معرض التعريض بهؤلاء الحكام الذين غلبهم الكبر فوقعوا ضحية أفعالهم الحمقاء وقادوا شعبهم إلى هزيمة نكراء، على أنَّ المقصود بضحية المفارقة هُم (القادة والحُكام العرب) والتي أطلق عليها البعض " مفارقة الذات غير الواعية " بقوله في قصيدته (من وحي الهزيمة) :

---

(١) ميويك . دي . سي (المفاقة وصفاتها) ترجمة / عبد الواحد لؤلؤة – موسوعة المصطلح النقدي ؛ ط١ – دار الفارس للنشر والتوزيع – عمان –١٩٩٣ م ؛ ص ٨٤ .

(٢) انظر المفارقة وصفاتها ص ٨.

لـــم يُعـــانِ الـــوغى ((لِـــواءٌ)) ولا عـــانى ((فريـــــقٌ)) أَهوالُهـــــا و ((مُشِـــــيْرُ))
رُتَـــبٌ صُـــنْعَةُ الـــدواوين.. مـــا شـــارِكَ فيهـــــا قَـــــرٌ الـــــوغى والهجيـــــرُ
وتَطيـــرُ النُسُـــورُ فـــي زَحمَـــةِ الـــنَجْمِ وفـــــي عُشِّـــــهِ البُغـــــاثُ يَطيـــــرُ
جَـــــبُنَ القـــــادةُ الكِبـــــارُ وفَـــــرُّوا وبكـــــى للفِـــــرارِ جـــــيشٌ جَسُـــــورُ
تَرَكُـــوهُ فَوْضَـــى إلـــى الـــدُورِ، فيحـــاءَ، لقَـــدْ ضَـــمَّتْ النســـاءَ الخُـــدورُ![1]

لعب الشاعر دور الناقد لتلك التصرفات والمدين لها بالإصلاح والتغيير، حيث كتب قصيدته إثر نكسة ١٩٦٧[٢]؛ ليكشف حقيقة بعض الأنظمة العربية وقادتها أمام الشعوب والتي كانت سببًا في هذه الهزيمة لقلة وعيهم السياسي والوطني بتعيينهم قادة للجيوش غير مؤهلين وغير أكفاء ولا يستحقون هذه المراتب القيادية العالية؛ وتفضيلهم على أناس آخرين كانوا أحق بتلك المنزلة لتكشف عن قصور فادح بذات الضحية التي تفتقر إلى الحنكة في الإدارة وقلة الدراية بشؤون بلادها وذلك بتعيين أولئك الذين وصفهم بأنهم (موظفون إداريون) وليسوا قادة عسكريين وأن تلك المراتب التي تقلدوها من باب الوظيفة الإدراية وليست نتيجة لمعاناتهم فى ميادين الحروب أو لكفاءتهم القتالية فى ساحات الوغى أو لتاريخهم المضئ بالانتصارات، ليكشف عن ذات غير واعية بتصرفاتها فى إسنادها الأمر إلى غير أهله من أصحاب الدراية والخبرة والكفاءة.

---

[1] الديوان: ص ١٩٢،١٩٣

[٢] أنشد قصيدته عقب هزيمة (جوان ١٩٦٧– النكسة) أكبر نكبة فى التاريخ الحديث أُبتلى بها العرب حين هزمت الجيوش العربية وبخاصة الشعب المصرى والشعب السورى والأردنى، فاكتسح الكيان الصهيونى أرض ثلاث دول عربية (مصر– سوريا – الأردن) واستولى على ما تبقى من أرض فلسطين (كالقدس الشرقية والغربية – وغزة) في ستة أيام.

إضافة إلى انشغال هؤلاء الحكام (الضحية) بتثبيت أركان حكمهم وقد ساسوا مواطنيهم بأساليب القهر والسياط والسجن والظلم ليكمموا أفواههم وليخرسوا ألسنتهم كي يضمنوا بقاء كرسيهم وديمومة حكمهم لكنهم سرعان ما كانت تلك الأساليب سببًا في قتل إرادة شعوبهم وروح المبادرة لديهم فأصيبت إرادة الأمة العربية بالشلل كل هذا كان سببًا في هزيمتهم، ليضع المتلقي في قلب الحدث كي يصل للمعنى الحقيقي الذي أراد أن يصل إليه وهو أن هؤلاء الزعماء نتيجة تصرفاتهم غير الواعية وبسلبهم لحرية شعوبهم قادوا بلادهم إلى هزيمة نكراء، ولم يقف الشاعر بالتعريض بهؤلاء الحكام عند هذا الحد بل تتعمق المفارقة حين يُقابل الشاعر بين فئتين في ساحة الوغى:

الفئة الأولى: وصفهم بالنُسور التي تطير في ساحة الوغى

الفئة الثانية: وصفهم بالبُغاث الذي يطير في عُشه

فلا شك أن وصف هؤلاء بالبُغاث يحمل من الإهانة ما يجعل منهم أُضحوكة أمام الشعوب، وهذا جزاء لسوء سياستهم وقلة درايتهم بفنون الحرب ما جعلهم يفرون من أمام العدو خوفًا وجزعًا لتبلغ المفارقة منتهاها بذلك التهكم في البيت الأخير في قوله (لقَدْ ضَمَّتْ النساءَ الخُدورُ !) حيث بدأ الشاعر بالتعريض بهؤلاء دون التصريح، لينتهى في آخر الأبيات بتهكم صريح وسخرية واضحة من هؤلاء القادة الجبناء الذين فروا من ساحة الحرب وتركوا جيشهم، بعدما وضعوا شعوبهم لقمة سائغة في فم عدوهم.

المبحث الثالث: مفارقة الاستخفاف بالذات

على نحو ما تُعد " مفارقة الاستخفاف بالذات " جزءًا من مفارقة سقراط وذلك أنه يتقمص شخصية الجاهل فيحط من قدر نفسه، فغالبًا ما " نجد صاحب مفارقة الاستخفاف بالذات يُنزل من قدر نفسه، ويكون ما يُعطيه من انطباع عن نفسه جزءًا من وسيلة المفارقة لديه. وذلك هو الأسلوب الرئيس في المفارقة عند سقراط "[١] فنجد الشاعر يتتبع طريقة سقراط في غير موضع فنراه يُظهر نفسه قليل الحيلة، مسلوب الإرادة، سادلًا عليه رداء الجهل بالتقليل من شأنه، والحط من قدر بيانه، واتهامه شعره بالتقصير في قوله:

مـــــالِى أُكـــــافِحُ بالبيـــــانِ وإنَّـــــهُ جُهْـــــدُ المُقِـــــلِّ عَزيمـــــةً وكِفاحَـــــا

وَمِـــنْ الغَضَاضَـــةِ أَننـــى أَرْضـــى بِـــهِ بَعْـــدَ الظِمـــاءِ المُرهَفَـــاتِ سِـــلاحَا

فَلَـــئِنْ سَـــلِمْتُ لأَهْـــتِفَنَّ بِغَـــارَةٍ شَـــعْواءَ أُحْكِمُهـــا ظُبـــىً وَرِماحَـــا

ولأَشْـــهَدنَّ بكـــل فَـــجٍّ مَعْقِـــلاً للظُلْـــمِ زَعْزَعَـــةُ القَضـــاءُ فَطاحَـــا[٢]

ولعل ما يحمله الشاعر من غضاضة في نفسه هو ذاك البيان الذي لا يؤتى أُكُله ولا يجنى ثمرًا يوفي حق ما يبذله فيه الشاعر من عناء وجهد إنما يجود عليه بالقليل فيشعر بالتقصير في حق وطنه، فلم يعد يوفي حقه في الزود عن وطنه وزعزعة أركان الظلم، بل صار عِبئًا ثقيلا عليه فأصبح يبحث عن بديل يُلبي له غرضه فتحول من الحرب باللسان والزود بالبيان إلى الحرب بالسلاح وشن الغارات على العدو حتى يهدم بنياه وتُقتحم قلاعه الحصينة .

---

[١] دى. سى. ميويك (المفارقة وصفاتها) ص ٨١، ٨٢.

[٢] الديوان: ص ٩٢

المبحث الرابع: المفارقة الرومانسية

و" في المفارقة الرومانسية كثيرًا ما يقوم الكاتب بخلق ((وهم)) illusio جمالي، على شكل ما، وفجأة يقوم بتدمير هذا الوهم وتحطيمه، من خلال تغيير في النبرة أو انقلاب في الأسلوب أو من خلال ملاحظة ذاتية سريعة وعابرة، أو من خلال فكرة عاطفية عنيفة ومتناقضة "[١]

وهنا تنبع المفارقة الرومانسية لدى الشاعر من مصدر جمالي بحت بدافع من قوة حماسية خفية " الإلهام والخيال " تدفعانه إلى بناء عالم جمالي ترسمه مخيلته و يختلقه عقله عن قصد أو نتاج حس مُرهف وعاطفة جياشة؛ فيُغذيه بروحه الشاعرة ليمحو عن الواقع قتامته و سلبيته ويُظهر جمالياته ليوهم القارئ بإيجابيتة لكن سرعان ما يكشف أن هذا البناء ما هو إلا محض خيال أو خدعة جمالية مُصطنعة تتحطم على صخرة الواقع، وكأنه كان يعيش في حلم وفجأة استيقظ على كارثة لينهار أمامه كل ما بنته مخيلته من آمال وأحلام " إذ يُعبّر المؤلف في هذه الأعمال عن وعيه بأن ما يكتبه ليس سوى وهم وذلك بحمل نفسه أو قرائه على غير توقع إلى العمل الأدبي"[٢].

حيث تبدأ هذه المفارقة " ببنية تحمل في طياتها ما يوهم القارئ بإيجابية الواقع، ويفتح أمامه نافذة الأمل تتسع باطراد، وما أن تقترب القصيدة من نهايتها – قبيل القفلة بقليل حتى تتغير اللهجة، وتتبدل المعطيات وتختلف حقول الدلالة، وهو ما يؤدي بتلك البنية إلى الانهيار والحطام لينتهي النص بقفلة تحمل كل معاني الألم والمكابدة والانكسار "[٣] فهذا النوع يقوم على خصيصة " البناء والهدم " فنراه يهيم

---

[١] (المفارقة والأدب. دراسات فى النظرية والتطبيق) خالد سليمان – دار الشروق للنشر والتوزيع؛ عمان – ١٩٩٩ م، ص ٥٨.

[٢] ميويك: ص ١١١.

[٣] المفارقة فى الشعر العربى الحديث، ص ١٤٦.

في عالم من المثالية المتوهمة التي تُنحي الموضوعية جانبًا لكنه يُعاود الانكفاء على الحقيقة مرة أخرى محكمًا الواقع ليكتشف القارئ في النهاية أنه أمام مراوغة تستدعي منه حضورًا ذهنيًا منه بالقدر الذي تستدعيه لصانعها، إذ " إن ((حضور الذهن)) عند المؤلف يجب أن يكون عنصرًا رئيسيًا في عمله إلى جانب القوة الدافعة في الحماس أو الإلهام، تلك القوة (العمياء) رغم أنها لا تقل ضرورة "[١].

وعلى وجه ما تأتي المفارقة في هيئة صورة من البناء والهدم، إذ يبني الشاعر في البداية عالمًا هائمًا في الرومانسية يجمع فيه بين مجموعة من الخيوط ليُشكل منها عالمًا جميلًا قائمًا على الحب والعطاء المتفاني والوفاء والتضحية؛ ليخلق منه ذلك العالم الحالم الذي يحلم به العاشق والعاشقة لكن في كل مرة يتهدم هذا العالم ويتحطم على صخرة الصد جسر الوصل بينه وبين محبوبته، هذا ما نجده في قصيدته (أي أمر ساءها):

إنِّى اسْتَعَرْتُ مِنَ الكَواكِبِ في الدُّجى لأْلاَءَهَا

وَمِنَ الغَزَالَةِ وَهْىَ تَرْكَعُ في السَماءِ ضِياءَها

ومِنَ الحَمائِمِ فَي الغُصُونِ نُواحَها وغَناءَها

وأَخَذْتُ مِنْ نُجْلِ العُيونِ فُتورَهَا

وَمِنَ الخَمائِلِ حِينَ باكَرَهَا الحَيا أَنْداءَها

وَمِنَ الوُرودِ عَبيرَها وَمِنَ العُقُودِ سنَاءهَا

لِأَصُوغَ مِنْها حِلْيَةٍ وَقَفَتْ عَلَيْكِ رُواءَها

تُغْضِى العُيونُ لِحُسْنِها أَوَ لَمْ تَرَى إِغْضَاءَها

وَتَوَدُّ تِيْجَانُ المُلوكِ لَوِ اغْتَدَيْنَ إِماءَهَا

---

[١] ميويك: ص ١٠٩

واحَسْرَتاهُ فإنَّنِى لَمْ أَسْتَطِعْ إرْضاءَهَا

صَدَّتْ وَكَيْفَ يُطِيقُ قَلْبِى صَدَّهَا وَجَفَاءَها

وَرَمَتْ بِحِلْيَتِي النفيسَةِ: أَيُّ أَمْرٍ سَاءهَا (١)

فلا يزال الشاعر يحفر في طبقات اللغة حتى يصل إلى النبع الذي تتفجر منه المفارقات المتقوقعة في بنيه النص العميقة لتخرج لنا بنية متناغمة، مثقلة بالدلالات، متغذية بأنفاسه المتلاحقة وارتعاشات روحه الهائمة في عالم من الحب والجمال؛ وثورة أشواقه العارمة.

فالأبيات توميء منذ الوهلة الأولى إلى بنية مشحونة بطاقة روحانية عالية تشع بهجة وتفاؤلًا وتفانيًا في الود والعطاء آملةً في مزيد من القرب والوصل، فينطلق الشاعر في آفاق رحبة من الجمال الذي يحوم به حول محبوبته لكنها حالة مؤقتة من النشوة الخادعة سرعان ما تزول وتتحول إلى حالة من اليأس والقنوط من وصال المحبوبة، في حين نراه يبنى جسورًا من التواصل بينه وبينها، لكن نُفاجأ بتحطم هذا الجسر الذي بناه فيتهدم وتخيب كل آماله وتُفارقه كل توقعاته في خيبات متلاحقة تتوالى بمزيد من الصد والجفاء والإنكار من المحبوبة فتقوم القصيدة على تناقض واضح بين المأمول والواقع ليكتشف القارئ مدى الخديعة التي أوقعت بالشاعر ضحية للغدر والخذلان ويستشعر عمق المأساة التي يتعايشها.

فقد سعت القصيدة منذ البداية إلى خلق عالم متناهٍ من الحب والجمال؛ لكن سرعان ما ينهار أمام عينيه بإعراض المحبوبة عنه، فيكتشف أنه كان يلهث وراء

---

(١) بدوى الجبل. الديوان ص ٤٥٢

سراب خادع لم يرو ظمأه ولم يطفئ نيران حبه وأشواقه، ولم يسكن نبضات روحه المتلاحقة، بل زاد من معاناته ومتاعبه، بمشاعرها المتبلِّدَة الباردة؛ فرجع بخيبة أمل تعتريه.

فالمفارقة قد تحققت حصولًا بهذا التعارض بين توقعات الضحية التي وضعت كامل ثقتها في المحبوبة وتغنت لها بأسمى معاني الحب والوفاء وقدمت لها أنفس الهدايا ظنًّا منها أن تلك الأفعال ستجلب لها مزيدًا من القرب والود والمحبة؛ لكنها تُفَاجأْ بوقع المحظور بحدوث عكس توقعاتها في انقلاب مفاجئ لتنبؤات الضحية (الشاعر) فيما ترجوه وتعتقده، فجاءت تلك الأفعال بعكس ما كان يحسبه الشاعر مصاحبة بخيبة أمل و بدلًا من أن تحقق له مزيدًا من القرب والحب والطاعة والوفاء، جاءت بعكس ما كان يتوقعه بمزيدٍ من الجفاء والقسوة والتمرد والعصيان ممثَّلا بقوله (صدّت – ورمت بحُليتي النفيسة – لم استطع إرضاءها) وهي كلمات تنم عن خيبة أمل الضحية فيما كانت تصبو إليه.

فصارت الوسيلة التي يتجنب بها جفاءها وتمردها وبعدها هي نفس الوسيلة التي أوصلته إلى تلك الحالة المأساوية من القسوة والبرود في المشاعر والتمرد والبعد من محبوبته؛ لتنتهي هذه الحبكة الحَدَثية باستفهام تعجُّبي يحمل الدهشة من هذا التمرد والجفاء.

وفي موضع أخر نرى الشاعر يخلق مخلوقًا هُلاميًا فيهبه كل حبه وأشواقه ويبثه كل ولعه؛ آملا فيه أن يشع نورًا يُضيء عتمته ويُشبع نهم روحه ويواسيه في حزنه ويخفف من لوعته وحرمانه، لكن فوجيء برد فعل مُعاكس لما يتوقعه، فتهاوى أمام ناظريه بناؤه الذي لطالما تفنن وأبدع في إنشائه في خيبات متلاحقة أوقعت به ضحية الغدر وعدم الوفاء وخير مثال على هذا ما نجده في قصيدتة (الدُمية المُحطمة):

أَيّـــا دُمْيَـــةً أَنْشَـــأْتُها وَعَبَـــدْتُها ... كمـا عَبَـدَ الغَـاوُون مَنْحـوتَ أحْجـارِ
سَـكَبْتُ بِهـا رُوحـي وأَهْـواء صَـبْوَتِي ... وأَلْـوانَ أحلامـي وبِدْعَـةَ اطْـوارِي
جَمَعْـتُ بِهـا الـدُنيا فكانَـتْ سُـلاَفَتِي ... وكأْسِـي ونُـدْمَانِي وأَهْلِـي وسُـمَّارِي
ونَامَـتْ علـى الحُلْـمِ المُـرِيْحِ بِمُقْلَتِـي ... وهَدْهَـدَها عِطْـري وحُبِّـي وإيثـارِي

جَمَالُـكِ مِـنْ سِـحْرِي وعِطْـرُكِ مِـنْ دَمِـي ... وفِتْنَتُـكِ الكُبـرى خَيـالِي وأَشْـعَارِي
وَثَغْـرُكِ مِـنْ حَـاني فَيـا لِمُنَمْـنَمٍ ... نَـدَّى بِأَنْفَاسِـي الريـاحين مِعْطـارِ
خَلَقْتُـكِ مِـن أَهْـواءِ نَفْسِـي وَنَوَّعَـتْ ... بِـكِ الحُسْـنَ أَهْـوائِي وحُبَـي وأَوْطـارِي

أَيُنْكِرُنـي حُسْـنٌ خَلَقْـتُ فُتونَـهُ ... فَيَخْنُقُنِـي عِطـري وتَحْرِقُنِـي نَـارِي
ويُنْكِرُنـي: يَـا غَضْـبَةَ الشِـعْرِ والهَـوى ... وَيـا غَضْـبَةَ الـدُنيا ويـا غَضْـبَةَ البَـارِي

رَدَدْتُـكِ للطـينِ الوَضـيعِ ومـا حَنَـا ... علـى رَوْضِـكِ الهـانِي هُبـوبِي وإعْصـارِي
وفَارَقْـتُ إِذْ فارَقْتُـكِ الطـينَ وَحْـدَهُ ... وعـادَتْ إلـي نَفْسِـي عُطـوري وأَنْـوارِي[1]

في لحظة صفاء وجداني وصدق شعوري لذات تواقة للحب وعاشقة للجمال، مُلهمة ومعطاءة، لا تضن ولا تبخل بل تبسط يدها بالعطاء وتنثر عبيرها الفواح على كل ما حولها؛ يسرد لنا الشاعر في البداية أطوار الخلق الأولى لدُميته التي تفنن وأبدع في خلقها بما أضفاه عليها من جمال وما بثه فيها من سحر بيانه وروعة أشعاره وفتنة خياله فجعل منها ملكة متوجة؛ وأقام لها عرشًا زاهيًا تعتلي شُرفاته حتى تخرج في حالة من البهاء والكمال.

[1] الديوان: ص ٣٥٩، ٣٦٠

تتحقق فيها حالة الخلق الأولى في جو من الاستقرار النفسي، وفي لحظات صفو لا يخالطها كَدَر ولا حزَنْ، هذه الحالة الهادئة تأتي توطئة وتهيئة لانقلاب أكبر تتحول على إثره الأحداث وتنقلب الأمور رأسًا على عقب في لحظة غضب جارف وثورة عارمة من الشاعر تجعل الأحداث تأخذ مجرى مخالفًا نظرًا لما لاقاه من جفاء ونكران، فيكتشف أنه أقام هذا البناء الشامخ على جُرف هار من الوهم، فتتكشف أمامه الحقيقة ويُقابل معروفه بالجفاء والنكران في خيبة أمل غير مُحتسبة؛ فيحطم ما بناه بيده ليثأر لنفسه ويتشفى لروحه منها ويُعيدها لصورتها الأولى وهي " العدم " وهنا تقوم المفارقة على غرار هذا التحول من الوجود إلى العدم.

فما دام الشاعر هو الصانع والواهب المعطاء فحق له أن يُجزى على الإحسان إحسانا لا تمردًا وعصيانًا، وبهذا النكران ينهار أمام هذا البناء الجميل الذي تفنن وأبدع في إنشائه متوقعًا منه أنه سيكون له ملجأ ومسكن وراحة وأمان فما ظنه سببًا لسعادته أصبح سبب مأساته، وهنا ترتسم ملامح الرومانسية في ذلك الانقلاب في النهاية الذي يُصاحبه تغيرات وانقلابات تشي بالمفارقة

- **تغير في نبرة الصوت**

حيث نلحظ أن نبرة الصوت في مفتتح النص تختلف عن نبرتها في قفلة القصيدة؛ فبداية النص تؤدَّى بنغمة صوتية منخفضة وعادية لتناسب حالة العتاب والتودد في قوله (أَيَا دُمْيَةً أَنْشَأْتُها وَعَبَدْتُها... كما عَبَدَ الغَاوُون مَنْحوتَ أَحْجارِ) في حين تنقلب نبرة الصوت في النهاية وترتفع وتنقلب إلى نغمة هجومية حادة تتناسب مع حالة الثورة والغضب التي عليها الشاعر والتي آلت به إلى تحطيم هذا البناء الذي شيده بنفسه وتبدأ النغمة في العلو بداية من الاستفهام الاستنكاري حتى نهاية الأبيات.

- **انقلاب في الأسلوب**

فأسلوب الشاعر في سرد الأبيات الأولى سيختلف حتمًا عنه في قفلة القصيدة، فحالته الأولى حالة من التودد والعتاب يسرد فيها الشاعر طريقة النشأة ويُعدد فيها فضائله وعطاياه ولا شك أن هذا الاستقرار سينتج أسلوبًا أكثر مرونة

وانسيابية في الإلقاء وسيتحول في النهاية إلى طريقة هجومية ثائرة.

- **حلول فكرة عاطفية عنيفة**

حيث تطرأ على الشاعر فكرة عنيفة في نهاية الأبيات تهدم كل ما بناه في البداية وتحوله إلى ركام في لحظة غاضبة بقوله (رَدَدْتُكِ للطينِ الوَضيعِ وما حَنَا... على رَوْضِكِ الهانِي هُبوبِي وإعْصاري)؛ وبهذا التحول والانقلاب " والبناء والهدم " ينطفيء بريق الأمل الذي أشعله في البداية وتتحقق المفارقة بين مطلع القصيدة وقفلتها.

الخاتمة :

تعددت النتائج التي توصلت إليها في ذلك البحث ومن أهمها:

١-أن المفارقة في شعر بدوي الجبل تجاوزت سمتها الأسلوبية لتصبح أُسًّا قارًّا في كينونته النفسية والثقافية، ورؤيته لواقعه المعيش ووسيلة إيحائية لأبعاد تجربته الشعرية، نظرًا لما تكتنفه المفارقة بوصفها أُسلوبا فنيًا وظاهرة لغوية من كثافة شعورية تعبيرية عالية تستغرق خفايا النفس وتستشرق آفاق التأثير الجمالي والتلذذ الفكري والشعوري

٢-أن الشاعر يشكل بنية المفارقة وفقً إدراكه لعالمه وما يحيط به من وقائع وأحداث وتناقضات يرسل فيها المعنى عبر رسالة بمثابة شفرة تحتاج إلى تفسير من القارئ تاركا وراءه ضحية ينطوى على شئ من الغرارة فى إدراك المعنى السطحى دون الوصول إلى الفهم العميق الذى يمرر الباث فيه ما أرداه من معنى.

المراجع :

١- بدوي الجبل (الديوان)، دار العودة – بيروت ؛ لبنان ١٩٧٨ م .
٢- أبو الهلال العسكري (الصناعتين) تحقيق / علي البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب – ط١ ؛ ١٩٥٢ م .

المصادر :

١- خالد سليمان (المفارقة والأدب – دراسات فى النظرية والتطبيق) دار الشروق للنشر والتوزيع – فلسطين ؛ ط١ – ١٩٩٩ م .
٢- عصام شرتح (دهشة الإثارة والفن في شعر بدوي الجبل) دار آمنة للنشر والتوزيع ؛ عمان – الأردن – ٢٠١٩ م .
٣- ميويك . دي . سي (المفاقة وصفاتها) ترجمة / عبد الواحد لؤلؤة – موسوعة المصطلح النقدي ؛ ط١ – دار الفارس للنشر والتوزيع – عمان –١٩٩٣ م .
٤- نبيلة إبراهيم (المفارقة) مجلة فصول – مجلد ٧ ، العدد ٣ ،٤ – مصر ١٩٨٧ م .
٥- ناصر يوسف إبراهيم جابر (المفارقة فى الشعر العربي الحديث- محمود درويش ، أمل دنقل ، سعدي يوسف . نموذجًا) رسالة دكتوراه – الجامعة الأردنية – كلية الدراسات العليا ؛ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م .